حضور التراث في رواية العشق المقدنس للأديب عز الدين جلاوجي

أ/ هشام تومي
أستاذ مساعد قسم -أ-،
جامعة عباس لغرور خنشلة،
toumihi@gmail.com

الملخص

تتشكل هذه الرواية من مضان عديدة، متح منها الروائي عديد النصوص التي ساهمت في بناء عالمه المتخيل معلنة انفتاحها على التجريب باعتماد أشكال وأساليب حديثة ، فجاءت على شكل تداخلات نصية تاريخية وصوفية ودينية، قصد من ورائها عز الدين جلاوجي التنويه إلى جملة من الأفكار التي تشغل باله فوقفنا من خلالها على حقبة تاريخية شديدة التعقيد ممثلة في الدولة الرسمية، ليغوص في أعماق التاريخ ناقدا ومحققا، لكن وفق لعبة السرد والمخاتلة الروائية رغبة منه في إضفاء طابع جمالي وفكري تنعم به روايته التي جاءت حاملة لعنوان يبعث على الدهشة ويحتاج إلى تفكيك متأن حتى نستطيع فك مغاليقه لكن بعد ولوج عالم الرواية، فكان هذا العنوان: العشق المقدنس.

الكلمات المفتاحية: التراث، الرواية، العشق المقدنس، التناص

Presence of heritage in the novel of el aashek el mokadnes for the writer IZZEDDINE JLAWJI

Abstract

This novel is composed by many texts that contributed to the construction of his imaginary world, declaring openness to experimentation by adopting modern forms and methods. It came in the form of textual, mystical and religious textual interventions. In which we stood on a very complex historical represented in the rustamian state, to the depths of history as a critic and an accomplice, but according to the narration game and the novelist's desire to give the aesthetic and intellectual character of his novel, which came with a surprising title: elaashk almokadnas.

Key words: heritage, the novel, elaashk almekdn,. Harmony.

مقدمة:

جادت قريحة الأديب عز الدين جلاوجي بعمل أدبي خلافي عن تجاربه السابقة مراهنا -كما عهده قراؤه- على خوض سبل التجريب الفني، متجاوزا الراهن وباحثا عن المتفرد والمتميز، فحملت روايته عنوانا مخاتلا ومقوضا لأفق انتظار المتلقي حيث وسمت بـ: العشق

المقدنس وهو عنوان يحمل في طياته تأويلات كثيرة، حيث تمت العودة فيها إلى فترة تاريخية محددة من تاريخ الجزائر، وهي فترة الجزائر الرستمية بعاصمتها تيهرت أو تاهرت -عراق المغرب-، ومكتبتها المعصومة، ومسجدها الجامع... مبرزا ومقارنا وناقدا للراهن من خلال الماضي، فكأن التاريخ يعيد نفسه بطريقة أو بأخرى ولإعادة بناء الفترة التاريخية المختارة تم الاعتماد على نصوص تراثية متعددة اقتباسا وتلميحا فكان منها الصوفي والتاريخي والديني، حيث وظفت لتمنح إضاءات جديدة من شأنها أن تغني النص اللاحق وتعمق قضاياه، حيث تنبثق عن هذا التقديم إشكالية أساسية تروم هذه الدراسة أن تنطلق منها وتحاول أن تموضعها في سياقها الطبيعي جاءت متمثلة في كيفيات استفادة الروائي من الزخم التاريخي والثقافي والأدبي باعتباره تراثا تم تطويعه وإدخاله العالم الروائي الذي ينبني على الخيال بدرجة أولى.

I. حضور الصوفي في الرواية كميزة خاصة:

يتمظهر الجانب الصوفي في رواية العشق المقدنس وفق استراتيجية التمثل التي تعني "**تمثل الذات، والسعي نحو تأسيس معرفة بالأنا، وهويتها الثقافية والاجتماعية والأنطولوجية، وخاصة في تلك المنعطفات التاريخية التي تبدو فيها الكينونة في مواجهة وضع مأزوم، يتسم بتعدد الرؤى والمواقف والاختيارات، ويحكمه هاجس التحول، ولهذا السبب نجد أن حضور الخطاب الصوفي يستحضر بشكل قوي في نصوص الذات، أي الرواية السيرذاتية، أو التي تنطوي على بعد بيوغرافي يستلزم الحديث عن الذات، وعن علاقتها بالذاكرة، وبالتجربة الاجتماعية الراهنة أو التاريخية الموروثة**"،[1] ويتجلى هذا الطرح تحديدا من خلال الفاتحة النصية للرواية، حيث تفتتح مبرزة مسارها في حلول غير معهود لعشيقين أرادا تخفيف أحمال النفس بالولوج في ليل دامس يخوضان لججه الزنجية، -وهنا تكمن المفارقة ويتبدى امتزاج المقدس بالمدنس والنور بالظلام الحقيقة والخيال إذ الرحلة والتحليق في فضاء النفس يستدعي نورا روحانيا- ويستحضر هاهنا الرمز الديني والمتمثل في المعراج "**ويتجلى المعراج وثيقة فكرية أدبية وصوفية تصور آراء المسلمين وتصوراتهم فيما وراء الطبيعة كما تزودنا بأنماط من وجهات النظر والتفكير في صلة الإنسان بالله والإنسان بالإنسان وبالكون، وتبين عن المعتقدات والأنظمة الروحية والاجتماعية وخاصة في التصوف.**"[2]

وقد عبر الراوي عن هذا المقصد إذانا بانطلاق رحلته الروحانية نحو ذاته – إذ المعراج الصوفي يكون بالروح فقط على خلاف معراج سيد الخلق محمد الذي كان روحا وجسدا- بجانبها النفسي وذلك من خلال التدرج في تطهير النفس عبر أزمان تمر كالسراب ودون أن نستفيد منها أو ترشدنا فنقمع غينا وباطلنا إزاء مزاعمنا في إحقاق الحق وإعلاء كلمة الله، فيستنير بمرشد كما يستعين المتصوفة، ليظهر في تلك العتمة القطب مجللا بالضياء والنور يقول الراوي: "**نمتطي شعاعا، يعبر بنا فجا كسم الخياط، نسري، نعرج، نستوي على عرش الربوة، يتنزل عليها مجللا بالضياء.**"[3] ليلتقي العاشقين بالقطب الذي نصحهما بالبحث عن الطائر العجيب وبمعيته ستتحقق السعادة المرجوة "**لابد أن تخوضا جبالا من لجج الظلام، بحثا عن الطائر العجيب، معه ستتحققان الحلم.**"[4]

بالعودة إلى هذه الافتتاحية التي اكتنزت بحمولات صوفية يتبدى جليا التفاعل النصي الذي مارسه الروائي من خلال عودته إلى التراث الصوفي ممثلا في منظومة فريد الدين العطار "**منطق الطير**"[5] الذي يعد منظومة فريدة من نوعها وهي واحدة من شوامخ الفكر الصوفي الإسلامي نظرا للرمزية التي تجلت في ثناياها لتعبر عن الجوهر في كل شيء متماسة مع ما هو روحاني وبرزخي وصوفي بحت، وقد استعار فريد الدين العطار لغرضه هذا رمز الطيور التي تبحث عن الطائر الذي سينصب ملكا عليها وهذا البحث بمثابة انخراط في عالم عجائبي وسماوي غيبي صوب الطائر الوهمي أو **السيمرغ** الذي يرمز إلى الله، والملاحظ أن هذا الطائر شبيه بطائر العنقاء في الأساطير العربية وطائر الفينيق أيضا، يختار صاحب المنظومة لهذه الرحلة النورانية أو هذا المعراج الروحاني طائر الهدهد ليقود هؤلاء السالكين لما له من خصوصية وقيمة عالية في الثقافة الدينية الإسلامية إذ تخبرنا القصة في القرآن الكريم ما جرى بين الملك سليمان الذي علم منطق الطير والهدهد الذي سخره الله لخدمته، فجاء من سبأ بنبإ يقين، وكان بمثابة المرشد لسليمان النبي، ثم "**تأخذ بقية الطيور في سيرها للبحث عن السيمرغ حتى إذا سلكت أودية السلوك السبعة ومرت على التوالي بوادي الطلب ووادي العشق ووادي المعرفة ووادي الاستغناء ووادي التوحيد ووادي الحيرة ووادي الفقر والفناء. والأبيات التي تمثل لنا هذه النهاية أبيات عجيبة، تمثل لنا تمثيلا حسنا فكرة الصوفية المتعلقة بالفناء في الله.**"[6]

وكلها تؤدي إلى الحب/المعرفة/الحقيقة ونظرا للصعوبات التي تلاقيها الطيور-هم الصوفيون- في رحلتها هذه يصيبها اليأس فيتراجع الكثير منها ولا يبقى في نهاية المطاف إلا ثلاثين طائرا تبقى مستمرة في البحث عن الطائر العجيب/ الغريب وهو ما يعني في اللغة الفارسية **سي مرغ**، فتجتاز هذه الطيور كل الصعوبات لتدرك في النهاية الطائر الخرافي الذي سينصب ملكا عليها، لتكتشف تلك الطيور أن السيمرغ ما هو إلا تجل وانعكاس لذاتها، وفي هذا دلالة واضحة على فكرة الحلول في الفكر الصوفي، وإحالة إلى مراجعة النفس ومجاهدتها في سبيل السمو عن العلاقات الدنيوية، فما تلك الرحلة إلا وجهة تتكشف على الذات الإنسانية لتصل إلى الحلول في الله "**أو لنقل مسارا رمزيا لسفر روحي يتطهر فيه الإنسان من مادة الأرض ويصعد في سماء النفس وصولا إلى مصدر كل نور وحركة ومآل.**"[7]

على هذه الشاكلة يغوص الراوي ومعه حبيبته هبة في أعماق التاريخ ليكون شاهدا على ما حدث وما يحدث متخذا نور القطب في سفرته صوب بناء الدولة الرستمية التي اشتهرت بالمعرفة وبالتفرقة في نفس الوقت لينقل لنا صراعات كثيرة حول الحكم، ومناظرات عديدة ارتبطت بالاختلافات المذهبية والآراء الدينية معبرة عن زمن الفتنة من مقتل سيدنا عثمان التي لم تنته تبعاتها لحد الساعة، وفي كل مرة تحاول أيادي الجاحدين أن تفرق بين العشيقين لكن حبهما كان أقوى من كل الظروف التي مرت بهما، فظلا يحلمان بسعادة أبدية على أرض يملأها الخير والاطمئنان والراحة، وقد كانا متلازمين طيلة السرد على الرغم من المشاق والعقبات التي واجهت كلا منهما طلبا للحقيقة والسمو عن أدران الدنيا، فمن فتنة إلى فتنة ومن جماعة إلى جماعة، لكنهما لم يفترقا، وكانت مكتبة المعصومة ملاذا آمنا لهما، ومصدر معرفة لا ينضب، من خلال هذه الرحلة الروحانية صوب الحقيقة التي تقودهما نحو الطهر للقاء الطائر العجيب/الغريب، والملاحظ أن الأديب عز الدين جلاوجي قد أضاف واديا آخر لبقية الوديان السبعة أطلق عليه اسم وادي الموت وهو فصل من فصول هذا الكتاب للدلالة على شدة القتل التي لم يكن لها مسوغ إلا اختلافات وأحقاد دفينة أدت إلى فناء الكثيرين، وفي النهاية وبعد أن اختطف الموت الجميع يصل العاشقان بعد كل المشاق إلى كنههما بظهور الطائر "**فجأة تعالى فوق رأسينا تغريد عجيب، رفعنا أعيننا معا، كان طائرا من جنة. أخضر مع بياض خفيف يشوبه، كالمرج تساقطت عليه**

قزعات بيضاء من سحاب ربيعي، على رأسه تاج تتدلى ذؤابته عن يمين، ويمتد ذنبه منفتحا في كبرياء، كأنه مروحة للروح، يعزف سمفونية للأمل،..."[8]

II. التراث الديني الإسلامي في الرواية:

يعد تعامل الأدباء عموما مع النص الديني سواء كان قرآنا كريما أو حديثا شريفا ميزة دالة على غاية فنية وجمالية ومعرفية وإيديولوجية أيضا، يتوخاها الأديب كي يضفي على نصه التنوع والتعدد والانفتاح على جميع الخطابات من خلال هذا التوجه في استلهام هذا النوع من المصادر الثرة "**ونعني بالتناص الديني تداخل نصوص دينية مختارة-عن طريق الاقتباس أو التضمين من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الخطب أو الأخبار الدينية...-مع النص الأصلي للرواية بحيث تنسجم هذه النصوص مع السياق الروائي وتؤدي غرضا فكريا أو فنيا أو كليهما معا.**"[9]، لأن تواجد النص الديني تحديدا في العمل الروائي أمر طبيعي، إذ هو نابع من الثقافة العربية التي خصها الله عز وجل بالقرآن حيث نزل باللغة العربية الأصيلة وبأحاديث النبي الذي هو أفصح العرب قاطبة، فكان استثمار النص الديني لبناء العالم الروائي غاية تكسب العمل الأدبي تفردا وخصوصية مثلى.

احتفت رواية الأديب عز الدين جلاوجي –العشق المقدنس- بالنص الديني كمصدر مختلف عن خطاب الرواية وهو ما تستدعيه "**الطبيعة المنفتحة للشكل الروائي على أشكال وأنواع أدبية من خارج الجنس الروائي**"[10] ممثلا في القرآن الكريم حتى غدا ظاهرة بارزة تسترعي الوقوف عندها، من خلال توظيف عديد الآيات القرآنية في ثنايا سرده الروائي وكان ذلك من أجل تعميق الفكرة وإثراء السياق الذي وردت فيه، وقد جاءت هذه النصوص في الغالب الأعم مجتثة من سياقها بقضها وقضيضها عن طريق الاقتباس لتحافظ النصوص الدينية على صيغتها الأصلية باستثارة سياقها الأصلي من خلال جعل الآية أو الحديث بين مزدوجتين وهذا هو النوع الغالب في الرواية ومنها ما جاء في ثنايا النص السري:

- "إن الحكم إلا لله" سورة يوسف الآية 67، سورة الكهف الآية 110، سورة الأنعام الآية 57.
- "استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين" سورة الأعراف الآية 128.

- "الرحمان على العرش استوى" سورة طه الآية 5.
- "فأينما تولوا فثم وجه الله"سورة البقرة الآية 115.
- "فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس" سورة التكوير الآية 16.
- "ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين" سورة الأنفال الآية 30.
- "واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" سورة النحل الآية 43.
- "وشاورهم في الأمر" سورة آل عمران الآية 159.
- "إنما المؤمنون إخوة" سورة الحجرات الآية 10.
- "ومن قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعا" سورة المائدة الآية 32.
- "فإن بغت إحداهما عن الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفي إلى أمر الله" سورة الحجرات الآية 9.
- "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم" سورة المائدة الآية 33.
- "فأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" سورة قريش الآية 4.
- "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها" الأنفال الآية 61.
- "وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين" سورة الحجر الآية 82.

مثلت هذه النصوص الدينية معينا ثرا للروائي وهو يشكل عمله الإبداعي، ففي الآية الأولى التي ذكرت في السرد نجد أنها جاءت مكملة لوصف مجلس الأمير-عبد الرحمان بن رستم- وفي هذا دلالة واضحة على ورعه وتقواه والاعتماد على الله في كل أمور الدولة فما الأمير إلا مسئولا ومكلفا بتطبيق أوامر الله ونواهيه، وفي ذلك إشارة إلى أن إقامة الدولة التي ستكون قائمة بشريعة الله وسنة رسوله الكريم وفيها إحالة على فرقة الخوارج التي سميت بالمحكمة لإنكارهم الحكمين –عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري- وقالوا لا حكم إلا لله، وبالعودة إلى القرآن المنزه نجد مرة قوله تعالى: "**إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين**" من سورة الأنعام الآية 57 وبها ما ينم عن قدرة الحق جلت أسماؤه في الفصل

بين الحق والباطل، وفي قوله تباركت أسماؤه: "**إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه**" سورة يوسف الآية 40 فلا معبود بحق إلا الله وهذا هو الدين الذي لا اعوجاج فيه، وفي قوله تعالى: "**إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون**" سورة يوسف الآية 67 فلا اعتماد إلا على الواحد الأحد في قضاء كل الأمور. ولا حول ولا قوة للإنسان أمام قدرة الله المطلقة. على الرغم من ورود الآية السابقة عدة مرات واختلاف السياقات التي ظهرت فيها إلا أن الآية 67 من سورة يوسف هي الأقرب لمراد الروائي إذ تدل على التوحيد والإفراد لله عز وجل كقولنا -لا إله إلا الله-.

أحيانا نلفي النص الروائي يحاور النص القرآني من خلال إجراء تعديل على صيغته الأصلية، ومن بين الشواهد الروائية التي حملت تغييرا في بنيتها الأسلوبية ما قاله الراوي: "**نخوض بين فرث للمآساة ودم للظلام**"[11] يحيلنا هذا المقبوس إلى الآية القرآنية الكريمة من سورة النحل الآية 65 حيث يقول الله عز وجل "**وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين**"، أليست الآية واضحة في دلالتها على لطف الخالق تعالى ورحمته وقدرته جلا جلاله؟ فمن بين الفرث والدم يخرج اللبن الخالص السائغ بأمر الله، حيث تتجلى قدرته في جعل كل شيء يسري إلى موضعه، فالدم يسري في العروق، واللبن إلى الضرع، والبول إلى المثانة، والروث إلى المخرج، وفي كل هذا لا يمتزج واحد من هذه الأمور بالآخر، لكن الأديب هاهنا في تعاملة مع النص الديني استعان باللفظ كي يغير المعنى لغاية هو مدركها، إذ بين الدم والفرث لا يوجد إلا المأساة والظلام، والفتن والقتل، فشتان بين الآية التي أحالت على الصفاء والنقاء رغم تعدد المضارب من خبيث وطيب لكنهما لا يلتقيان، وبين ما يود أن يخبرنا به عز الدين جلاوجي من اجتماع والتقاء واختلاط المقدس بالمدنس ثبتته الحادثة التاريخية ورواه الأديب أيضا، في إحالة ضمنية منه إلى عدم الاستفادة من الماضي، وعدم أخذ العبرة منه، ما حدا بالروائي أن يخوض رحلة روحانية على طريقة المتصوفة بالانتقال من الواقعي العياني إلى الغيبي الروحاني، ليستجلي ما غمض ويقارن واقعا ولى بواقع يكرر ما ولى.

III. استثمار التاريخي واقحامه في الروائي:

01. واقعية التاريخ ولا واقعية التخييل الروائي:

يعد التاريخ خطابا دلاليا وقائعيا ناجزا فهو "**تلك المادة المنجزة والمنتهية التي مر عليها زمن لا بأس به...**"[12] ويتميز كونه يتحرى الصدق فيما يسرد فهو من وجهة نظر ابن

خلدون نظر وتحقيق بنزوعه إلى الحقيقة ومن خلال استنطاقه الماضي، لأن الرواية آفاقها رحبة وعالمها واسع يتناول الحياة برمتها وباستطاعتها ترهين عديد الخطابات الأدبية وغير الأدبية والاستفادة منها "**فكل ما في الحياة هو من اهتمامها فالنفس والمجتمع والمشاعر والتاريخ والماضي والحاضر من الحياة**".[13]

لقد اعتبر التاريخ رافدا مغر يسترعي اهتمام الروائي العربي عموما، والجزائري بوجه الخصوص فتمثل عديد الروائيين التاريخ من مثل: إبراهيم الكوني، وجمال الغيطاني، وعبد الرحمان منيف، وبن سالم حميش، وواسيني الأعرج، وعز الدين جلاوجي... وذلك من خلال استثماره وإدخاله العالم التخييلي بغية الكشف عن هموم وقضايا راهنة تشغل بال المبدع بإعطائه مفهوما مغايرا يبتعد عن الحنين والعبرة والتوثيق والتعليم، وفي هذا دلالة على تعدد السبل التي ينتهجها الروائي في بناء عالمه المتخيل لأنه في تعامله مع التاريخ سيقدم رؤية خاصة لأحداثه المتخيلة فـ "**التاريخ في النص لحظة تأمل في زمن قد يتكرر بانكساراته وأوهامه وضعفه ولكنه في الوقت نفسه، خطوة إلى الوراء تعيد النظر في الذات والآخر كما تكون لحظة تقترح الفعل ووسائل تجاوز النشاز الذي تعيشه الذات في علاقتها بالعالم**."[14]

تأسيسا على السابق تتشكل رؤية الروائي الذي يتفحص أحداث التاريخ، فيقدم قراءة تكون بمثابة إعادة استكشاف لزواياه المظلمة و "**على التاريخ أن يقبل بترك ثوابته وصرامته عند عتبات الرواية ويحتمي بالنسبية والهشاشة التي تسبغ الفعل الروائي الذي لا يرتكن أبدا إلى اليقين**"[15].

هذا التواشج بين الخطابين الذين "**يجمعهما السرد ويفرقهما الصدق والكذب**"[16] حد التماهي والتداخل يضمن للعمل السردي تضافرا آخر بين ما هو ماضي وما هو حاضر، حتى يصبح كل منهما صورة للآخر في استدعاء واقعي هيئت له عملية الإبداع والخلق بوسائل متعددة وناجعة تبين عن وعي جديد بالماضي وببعض أحداثه التاريخية التي تتشكل وفق تبئير الروائي –طبعا- بحيث تستجلب المادة التاريخية حين دخولها العمل الروائي وتحول من وقائع تتوخى الصدق إلى عنصر أدبي وفني من عناصر تكوين الرواية، فتبرز وفقا لذلك براعة الروائي في صياغة الفترة التاريخية المنتخبة كتناص يروم كسر رتابة التاريخ بإزالة هالة القداسة عنه بمساءلته ومحاورته، بتحويله وتضمينه باجتثاث ما يخدم رؤية المبدع

وحاضره، وموجها إياه صوب عالم يسوده الإيهام بواقعية الأحداث، حيث يتغير إلى خطاب له سمات خاصة ورسالة مختلفة عن ما اضطلع التاريخ به، فالتاريخي "**أحداث أختيرت من التاريخ حسب تبئير الروائي، ووظفت في الرواية تجسيدا لغرض روائي ماض أو راهن أو مستقبلي. بل إن الأحداث التي اختيرت من التاريخ حسب تبئير الروائي لم تستنسخ من كتب التاريخ بقضها وقضيضها، بل قام الروائي بتفكيكها وإعادة تركيبها بما يلائم الغرض الذي يرمي إليه أو بحسب دواعي التخييل إذا أردنا الدقة في التعبير النقدي... فالتاريخي في الرواية يؤخذ بدلالاته العامة ورؤياه وقيمه، والتاريخ يؤخذ بحقيقته الموضوعية وزمنه. التاريخي في الرواية احتمالي فني والتاريخ خارج الرواية حقيقي موضوعي. ومن ثم فالرواية لا تنوب عن التاريخ، ولا ينوب التاريخ عن الرواية، لأنهما حقلان مختلفان، جمالي ومعرفي. بل إن التاريخ لا يستقي من الرواية، لأنها نص فني يطرح رؤيا ولا ينسخ معرفة**"[17].

بهذا المعنى نستشف أن الروائي في انتخابه للأحداث التاريخية يروم النبش في الهامشي والمسكوت عنه الذي لم يقله التاريخ الرسمي بنقده ومشابهته بالحاضر بمساءلته والاستفادة من معطياته، فكأن الروائي ينظر للحاضر بعيون الماضي باعتماد ما يمتلك من أدوات المخاتلة والتمويه للواقعة التاريخية التي لا يتبنى تسجيلها أو إعادة كتابتها فهذا دور المؤرخ الذي عاين الواقعة أو خبر عنها، إنما بصياغتها وفق دواعي التخييل الفني المبثوثة في عمله الروائي، فيصبح التاريخ مادة ثرية يستمد منها الروائي موضوعاته وشخصياته وأحداثه حتى يقدم في النهاية رؤيا شاملة عن هذا الماضي في علاقته بالحاضر.

02. المتن الروائي والاشتغال على التاريخ/ العودة إلى المادة التاريخية وإعادة كتابتها روائيا:

عادت الرواية في بناء متخيلها السردي إلى مرجعية تاريخية متحت منها أحداثها تمثلت في حقبة زمنية مرتبطة بالدولة الرستمية (التاريخ الوسيط) الإباضية بالمغرب العربي الإسلامي، فخاضت عبر فصولها في قضايا تكوين هذه الدولة حتى سقوطها، فمن خلال الراوي وحبيبته هبة نتعرف عن ذلك الماضي بكل تفاصيله الذي انتقلنا له من خلال الحاضر والذي تشوبه الفتن والتعدد الحزبي، وكثرة الفرق والطوائف، وعديد العقائد والديانات التي أدخلتنا في متاهة الحيرة والخوف، لما إثارته تلك الفتن في الزمن الماضي، فما أشبه الماضي بالحاضر في تناحرنا واختلافنا وعدم قبولنا لبعضنا البعض، فعبر السرد المتماهي بالتاريخ

حد الالتصاق تتموضع الشخصية المتخيلة في المكان التاريخي لتحدثنا عن بناء تاهرت التي جمعت كل الناس على اختلافهم العرقي أو الديني من كوفي إلى فارسي ومالكي... عن مكتبة **المعصومة** وإشعاعها الثقافي والفكري وما حوته من نوادر الكتب وعن **عبد الرحمان بن رستم** وإقامة الدولة التي لا تزيغ عن حدود الله وسنة رسوله، وكثرة الصراعات التي دارت في تلك الحقبة، عن بني أمية وبني العباس والحروب الكثيرة التي تشتت فيها المسلمون طوائف وشيع.

ينقلنا السرد الروائي في رواية العشق المقدنس وفي الفصل الأول المعنون بـ: الجاسوسان والخليفة إلى أجواء الخلافة والمجلس لأن الراوي حاضر وشاهد عايش الأحداث وسمعها من مصدرها، وفي هذه الأثناء نجد أنفسنا أمام الإمام عبد الرحمان بن رستم ونستمع لحديثه أمام من يتواجد في مجلسه، ليختلط السرد الروائي بالتاريخي حد التماهي، ومن بين التعالقات النصية التاريخية ما نجده مقترنا بقصة عبد الرحمان بن رستم التي يرويها أحد الحضور للدلالة على عدل الإمام وتفانيه وارتحاله وأخذه العلم على يد الإمام **أبو عبيدة بن أبي كريمة** الإمام الثاني ومرجع الإباضية **بعد جابر بن زيد**، ورحلته للجهاد مع أبي الخطاب والتجائه إلى المغرب الأوسط على إقامة دولة لا حكم إلا لله فيها "**خلفتك الأقدار يتيما في بيت الله الحرام كما خلفت رسول الله من قبل، ثم أخذت بيدك في رحلتك إلى القيروان، ثم عودتك إلى المشرق للاستزادة من العلم على يد الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة. إمام الإباضية الأكبر رضي الله عنه، ثم في ما عانيته من اعتكاف في سرداب الإمام أبي عبيدة خمس سنوات كاملة تجنبا للظلمة من بني أمية، ورحلة الجهاد التي خضتها تحت راية الإمام الشهيد أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني، رحمه الله ورضي عنه.**"[18] ليحولنا سياق الرواية إلى حادثة الجيش الذي قاده **ابن الأشعث** وهو من قواد الدولة العباسية ضد **أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني** وقتله، وفرار عبد الرحمان بن رستم إلى جبل سفوجج بعد الهزيمة التي ألحقها بهم بن الأشعث "**ولكن عبد الرحمان بن رستم لم ينعم بمقامه طويلا في القيروان ذلك أن الخليفة العباسي المنصور أرسل قائده محمد بن الأشعث لضرب الإباضية في المغرب وعلى رأسهم أبو الخطاب سنة (144هـ/761م) ورأى هذا القائد العباسي في عبد الرحمان بن رستم أكبر الخطر على وجود العباسيين في بلاد المغرب، وكان عبد الرحمان بن رستم**

قد خرج في جيش عظيم لدعم قوات أبي الخطاب التي زحفت لمقاومة جند ابن الأشعث، وما إن وصل هذا الجيش إلى قابس حتى بلغته أنباء بمقتل أبي الخطاب وهزيمته."[19] لينفك السرد من التاريخي إلى الخيالي عبر لعبة السرد، فنجد الراوي البطل وحبيبته هبه متقمصين دور الجاسوسين الذين يكشفان في حضرة الإمام.

يقود الدليل الذي عينه الخليفة مرافقا للجاسوسين ومن خلاله تبدأ رحلة اكتشاف العاصمة تاهرت ومن خلال البطلين نتعرف على قصة بنائها التي خالطها الخيال واكتنفها سرد لأخبارها العجيبة التي ارتبطت بكرامات الإمام وتبريكاته يقول الراوي "**عزم الرجال على توسعة تيهرت القديمة بادئ الأمر،(...) فقرر الإمام إقامة تتيهرت الجديدة وسط الغابات العملاقة التي تكتظ بالوحوش والسباع والحيات، فلما خشي الناس أذيتهم، اعتلى الإمام صخرة عملاقة، وصاح في كل الوحوش يدعوها باسم الله أن تغادر المكان، وفي لحظات رأينا بام أعيننا المئات منها تخرج في قوافل، باتجاه الغابات المجاورة، وتلك إحدى كرامات الإمام.**"[20]، يبدو أن هذه القصة التي غالبها الجانب العجائبي الذي يدل على بركات الإمام عبد الرحمان يشبه إلى حد كبير قصة عقبة بن نافع في بنائه القيروان، كما نجد اجتماع روايتين عن بناء تاهرت وهما مثبتين في كتاب **السير للشماخي** وكتاب **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكري**، ليجد البطلان أنفسهما أمام مناظرة دينية مفحمة بين شاب وعجوز حول قضية عقدية، ليذكر السارد معلما مهما وهو **المسجد الجامع** الذي يضم كل أتباع المذاهب، وهو مسجد يجمع كل الطوائف من طلبة علم شرعي، وهو أيضا مكان للفصل فيما استشكل من قضايا الناس، ليتداخل السرد مرة ثانية بكتاب **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** لكاتبه **المقدسي المعروف بالبشارى**، في وصف تاهرت حيث يقول الراوي نقلا عن الكتاب السابق "**هي بلخ المغرب، قد أحدقت بها الأنهار، والتفت بها الأشجار، وغابت في البساتين، ونبعت حولها العين، وجل بها الإقليم، وانتعش في الغريب، واستطابها اللبيب، يفضلونها عل دمشق وأخطأوا، وعلى قرطبة وما أصابوا، هو بلد كبير، كثير الخير رحب، رقيق طيب، رشيق الأسواق، غزير الماء، جيد الأهل، قديم الوضع، محكم الرصف، عجيب الوصف..** "[21]

أما في فصل أسماه الروائي بـ: شعيب بن المعروف المصري والنكار، نجد تداخلا بينا مع قصة مقتل الإمام علي كرم الله وجهه على يد عبد الرحمان بن ملجم المرادي من خلال

قول الرواي: "**ثم حدثني بعدها عن الجريمة النكراء التي وقعت ذات تاريخ بئيس. وراح ضحيتها غدرا الشهيد الإمام علي عليه السلام، مستعملا كل قدراته لشحن عاطفتي الإيمانية.**"[22]، ليجادل فكرة قيام إمارة تيهرت على أيدي سلالة عبد الرحمان بن ملجم ليطرح السؤال التالي: "**هل هناك قرابة بين عبد الرحمان بن ملجم وعبد الرحمان بن رستم؟**"[23] تاركا الإجابة مبهمة ومفتوحة للقارئ حتى يملأ هذه الفراغات التي هي أساسا مفتوحة على تعدد الإجابات ومنه البحث عن العلاقة الرابطة بين الرجلين.

نجد أيضا في هذا الفصل إشارة إلى وفاة الإمام عبد الرحمان بن رستم إذانا من السارد للمرور إلى مرحلة إمامة جديدة ليذكر لنا مجموعة من الأئمة المخولين للخلافة وهم: **مسعود الأندلسي، أبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني، عمران بن مروان الأندلسي، أبو الموفق سعدون بن عطية، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سدمان، وعبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم.** وهذه الأحداث كلها مثبتة تاريخيا وقد وردت في كتب الأخبار، خاصة ما تعلق بشعيب المصري والنكار الذي جاء عنوانا لهذا الفصل.

والمعروف سلفا أن النكار جماعة انشقت عن الإباضية في المغرب الإسلامي زمن الإمامة الرستمية نظرا لإنكارهم إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، بزعامة **أبي قدامة يزيد بن فندين اليفرني** الذي كانت له أطماع في الإمامة أو على الأقل في توليته منصبا في الدولة إضافة إلى **أن** بعضا من زعماء الإباضية لم يعجبهم تحول الإمامة إلى وراثة وقد آزره في مسعاه شعيب بن المعروف المصري في إنكاره إمامة عبد الوهاب، وهذا ما أدى إلى انقسام وتفرقة مذهبية خطيرة في ذاك الزمن، وعلى إثر ذلك اشتعلت الحرب بينهم وبين الإمام وسفكت دماء كثيرة.

ومن إمام إلى إمام يمضي السارد في تجلية تلك الانقسامات والاضطرابات التي سادت كل مراحل الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي وصولا إلى الخطر الشيعي القادم بقيادة أبي عبد الله الشيعي الذي سقطت على يديه الدولة الرستمية "**مع الفجر كان الاقتحام والالتحام، وسقط الآلاف من القتلى، وترامت عشرات الجثث هنا وهناك عبر طرقات المدينة المنهزمة. لقد دك الجيش الغاضب كل الحصون، وأباد كل المقاومين، (...)**"[24]

لقد عمد أبو عبد الله الشيعي إلى مكتبة المعصومة بعدما استباح تاهرت ونهبها، كي يقضي على كل ماله علاقة بالفكر الإباضي المكتوب، لكنه كان حريصا على كل ما يضيف فائدة للدولة العبيدية فأمر بأخذ الكتب المتعلقة بالرياضيات والطبيعيات والطب.

الملاحظ على رواية العشق المقدنس اعتمادها على التاريخ في بلورة ما تريد الرواية قوله، باعتماد تقنيات عديدة في هذا التلاحم والتواشج المثمر بين السرد التاريخي والسرد الروائي، فكان من بينها تحويل السرد التاريخي إلى سرد روائي، وهذا هو الغالب، كما كان الاعتماد على الحادثة التاريخية جليا رغبة من الروائي إكساب نصه تفردا وخصوصية بمثل هذا التوظيف، بالإضافة إلى الغايات الجمالية والفكرية التي دلت عليها الرواية باعتمادها بلاغة المفارقة التي تولدت من زخم التاريخ لبناء استعارتها الكبرى عن الماضي لمساءلة الحاضر، دافعة بالقارئ صوب عالمها التخييلي القائم على أركيولوجيا تاريخية تروم التجاوز بعيدا عن المقدنس ووصولا إلى الجوهر.

الخاتمـــــــة:

أسفرت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج التي استخلصت من مقاربة رواية العشق المقدنس للأديب عز الدين جلاوجي يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

- أن الرواية باعتبارها عالما تخييليا يستند إلى بناء فني من تشييد بنات خيال الروائي يمكنها بفضل شساعتها ورحابتها أن تنفتح على خطابات متعددة أدبية كانت أم غير أدبية، وتجعلها خادمة مرنة مطواعة لجماليتها، وهذا ما دلت عليه النصوص الموظفة في رواية العشق المقدنس التي اتكأت على عديد المصادر التراثية، حيث وظفتها واستثمرتها وجعلتها جزءا من بنيتها مشرعة أفقها صوب التجريب الذي يجعل الرواية أكثر مرونة في تمثل أشكال وأساليب في التعبير مستحدثة،
- يمكن للرواية أن تكون مختبرا حيا تناقش فيه الآراء الفكرية والفلسفية التي تثري الواقع انطلاقا من عيون المبدع وصولا لذهن القارئ الإيجابي –طبعا- الذي أصبح عنصرا فاعلا في عملية التلقي، وهذا ما ناقشته الرواية عندما نظرت للراهن بعيون الماضي، فتحدثت عن فترة تاريخية حرجة ميزتها الفتن والتفرقة والانقسام لهثا وراء السلطة، فما أشبه الأمس باليوم، وهذا ما يستدعي من قارئ العمل أن يكون على قدر

من المعرفة التاريخية من ناحية، وأن يكون ممتلكا للأدوات النقدية التي لا تمر على المعطى الجاهز كونه مسلمات لا بد من الالتزام بها وعدم تجاوزها،

- لا يأتي توظيف كل ما هو تراثي جزافا في الأعمال الإبداعية، خاصة ونحن اليوم نتحدث عن سيدة الألوان والأجناس كلها -أي الرواية-، حيث شكلت الرواية العربية عبر مسيرتها طفرة واضحة في تعاملها مع كل ما يحيط بها تعاملا خاصا بعيدا عن السذاجة والسطحية في الطرح، وهذا ما برهنت عليه عينة الدراسة وهي تقحم في بنائها مثلا ما هو صوفي منذ العنوان وحتى الفاتحة التي جاءت مكتنزة لدلالات صوفية عبر معراج أرضي بحثا عن الجوهر في كل شيء،
- أصبحت الرواية العربية وهي تسير بخطى حثيثة صوب التميز والتفرد أن تتجاوز السابق من النصوص، عن طريق استحداث أساليب مستجدة طالت الشكل والمضمون، حتى تضمن لنفسها المختلف الابداعي على حساب المؤتلف العادي، فنجد العناوين المخاتلة التي تبتعد عمّا عرفت به الرواية التقليدية في كون نظام العنونة مثلا ينبني على المقولة السائدة: العنوان يلخص والرواية تفصل.

قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، مؤسسة عمان للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2000، ط2.
- أحمد صبرة ومعجب العدواني، التشكل والمعنى في الخطاب السردي، الانتشار العربي، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2013، ط1.
- أسماء خوالدية، الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، منشورات ضفاف، الرباط، 2014، ط1.
- بديعة الطاهري، ملامح اشتغال التراث في رواية جارات أبي موسى لأحمد توفيق، الخطاب، ع4، تيزي وزو، 2004.
- حسن الصميلي وآخرون، الرواية المغربية أسئلة الحداثة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1996، ط1.

- سليمة عذاوري، الرواية والتاريخ دراسة في العلاقات النصية- رواية العلامة لبن سالم حميش نموذجا- مذكرة لنيل شهادة الماجستير، إشراف واسيني الأعرج، جامعة الجزائر، 2006/2005.
- سمر روحي الفيصل، الرواية العربية البناء والرؤيا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.
- عز الدين جلاوجي، العشق المقدنس، دار الروائع للنشر، سطيف، الجزائر، دت، ط2.
- فريد الدين العطار، منطق الطير، تر، بديع محمد جمعة، دار آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2014، ط2.
- محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)، دار العالم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987، ط3.
- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991، ط3.
- نضال الشمالي، الرواية التاريخية، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2006، ط1.
- واسيني الأعرج، الرواية التاريخية،/ أوهام الحقيقة، أبحاث ندوة الرواية والتاريخ، دار الكتب القطرية، جامعة الجزائر، 2005.

الهوامش:

([1])- حسن الصميلي وآخرون، الرواية المغربية أسئلة الحداثة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1996، ط1، ص133.

([2])- أسماء خوالدية، الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، منشورات ضفاف، الرباط، 2014، ط1، ص67.

([3])- عز الدين جلاوجي، العشق المقدنس، دار الروائع للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، دت، ط2، ص8.

([4])- نفسه، الصفحة نفسها.

([5])- فريد الدين العطار، منطق الطير، تر: بديع محمد جمعة، دار آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2014، ط1،.

([6])- أسماء خوالدية، الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، مرجع سابق، ص 71.

([7])- نفسه، الصفحة نفسها.

([8])- عز الدين جلاوجي، العشق المقدنس، ص ص165/164.

([9])- أحمد الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، ص37.

([10])- حسن الصميلي وآخرون، الرواية المغربية أسئلة الحداثة،ص133.

([11])- الرواية، ص7.

([12])- واسيني الأعرج، الرواية التاريخية/أوهام الحقيقة، أبحاث ندوة الرواية والتاريخ، دار الكتب القطرية، جامعة الجزائر، 2005، ص09.

([13])- نضال الشمالي، الرواية التاريخية، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2006، ط1، ص109.

([14])- بديعة الطاهري، ملامح اشتغال التراث في رواية جارات أبي موسى لأحمد توفيق، الخطاب، ع4، تيزي وزو، 2004، ص21.

([15])- المرجع السابق، ص10.

([16])- أحمد صبرة ومعجب العدواني، التشكل والمعنى في الخطاب السردي، الانتشار العربي، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2013، ط1، ص417.

([17])- سمر روحي الفيصل، الرواية العربية البناء والرؤيا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص ص67/66.

([18])- الرواية، ص11.

([19])- محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي(حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987، ط3، ص83.

([20])- الرواية، ص17.

([21])- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991، ط3، ص228.

([22])- الرواية، ص53.

([23])- الرواية، نفس الصفحة.

([24])- الرواية، ص156.